باب اللغة العربية وآدابها:

1- ملامحنا الداخلية في مواجهة الغزو الفكري

Our Inner Features in Confronting Intellectual Invasion

بقلم الدكتورة: فدوى نور الدين الخطيب

أستاذ مساعد في كلية التربية وعضو اللجنة الثقافية في اتحاد الجامعات اللبنانية

Written by Dr. Fadwa Nour Al-Din Al-Khatib,

Assistant Professor at the Faculty of Education and member of the Cultural Committee of the Association of Lebanese Universities.

fadwakhatib210@gmail.com

لا ريب أن لكل امة خصائصها الفكرية والدينية التي تتبلور في انجازاتها التاريخية والحضارية كتعبير عن روحها ونبضها، لذلك كان هناك الكثير من الاشكاليات التي وقع بها مثقفو عالمنا العربي سواء في ذلك بالمبالغة في تأييد الفلسفات الغربية أو في رفضها، وقد احبطت هذه الازدواجية معظم محاولات

الاصلاح، فالقيادات الثقافية التي طمحت الى تجديد حياة الأمة فكرياً ومادياً كانت أساسا قد استقت من الحضارة الغربية أولوياتها، والذين نظروا الى مواريث امتهم الفكرية والحضارية نفرته منها تلك الحالة التي كانت عليها المؤسسات التقليدية التي جمدت حالتها على عصر المماليك، هكذا كانت الخيارات المطروحة تنقسم الى ثلاثة بدائل،

اختيار الأصالة أو اختيار الحضارة الغربية أو التوفيق بينهما اي ان نأخذ من الفريقين ما يناسب مجتمعنا، والحقيقة هو ان طرح الموضوع بصيغة الاختيار ما بين التراث والحضارة الغربية مسؤول الى حد بعيد عن التخبط والفوضى الفكرية العارمة التي يعاني منها مجتمعنا الحالي، وهو ما أثر بشكل سلبي عنيف على واقعنا الاجتماعي الذي كان ابرز ما استوردته من حضارة محاكم التفتيش قضية التعايش الديني وهي التي حولت عصبة الأمم عام 1948 الى عصابة عملت على اقتلاع الشعب الفلسطيني من أرضه لاستبداله بشعوب أخرى جاءت بها من كل أصقاع الارض عام 1948.

لهذا وعلى المستوى الادبي تحركت الصور الفنية للإنسان الحضاري في الرؤية العربية الحديثة على القيم الإسلامية لتستنبط من الصراط المستقيم الموجود في القرآن الملامح الفنية للإنسان الحضاري الكامل الذي يستطيع التوازن ما بين جاذبية الارض وجاذبية السماء، وهي الصورة التي تحول دون الخضوع لجاذبية القوى الارضية والاستعلاء عليها، لا كما هو حاصل في الحضارة الغربية[1].

لهذا وعلى المستوى الادبي تحركت الصورة الفنية على رفض الصورة الغربية الأحادية القائمة على الدنيا وحدها لتقابلها بثنائية الدنيا والآخرة والخالق والمخلوق.. الخ الخ.

لهذا وعلى المستوى الادبي تحركت الصورة الفنية على رفض الصورة الأحادية التي قامت عليها الفلسفة.

الغربيه التي تقوم على الدنيا وحدها الى الصورة الفنية القائمة على ثنائية الدنيا والآخرة والخالق والمخلوق

لهذا جابهت النهضة الفكرية في عالمنا العربي نزعة تفرد العقل الذي كان أحد نتاجات المدرسة الوضعية ونظمها، اذ كانت اوروبا وفي الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وفي ظل المنهج التجريبي تعاني من تغيرات جذرية عميقة في المفاهيم العقلية والقيم الحياتية ونظره الانسان لنفسه وإلى الكون، وهذا ما أدى

الى مفاهيم عقلية جعلت من التجربة العلمية والمعرفة المحسوسة ميدانا المعرفة الوحيدين نتيجة للمدرسة الوضعية التي لا تعترف سوى بالمادة المربْية وحدها، والتي تعتبر ان لا ثنائيه بين عالمي الروح والمادة وان لا مجال للبحث في غير عالم المادة، فعالم ما وراء الطبيعية ليس سوى الفاظ جوفاء.

1- د.سعاد الحكيم ..الحكمة في حدود الكلمة بحث في مفردات ابن عربي - د. سهيله الترجمان - نظرية الانسان الكامل عبد الله الجيلاني - توفيق الحكيم - عصفور من الشرق ص 101 - التعادلية مع الاسلام والتعادلية. ص: 165 - 167.

لهذا اعتبرت المدرسة الوضعية المادة بديلاً عن الله، كذلك كان الحال مع معظم فلاسفة اوروبا خاصة مع فلسفة نيتشه «القوة» التي قضت على الاحساس الروحي والتي اوجبت قتل الضعفاء لا مساعدتهم.

في هذه الحقبة انشئت عصبة الأمم لتسيطر على الارث العالمي. الجديد الذي جعل العالم العربي محوره حيث كان التحضير جاريا لاقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، وهذا ما جعل اليهود يعملون على انجاح الداروينية والماركسية والنيتشية.[1] وقد انتشرت هذه القيم الغربية في مختلف بيئاتنا الاجتماعية كالنار في الهشيم، ونسي ابناء المجتمعات العربية القيم التي كانت سائدة في مجتمعاتنا من قبل وذلك يوم عرفو المنهج السماوي للمعرفة فكشفوا للانسانية عمّا بها من جمال وصفاء وذلك مع ميثاق الرسول الذي حفظ البشر والشجر والحجر فالقيم الاخلاقية التي كانت لدينا هي التي قررت كرامة الانسان واعلت شرف العلم الرفيع واعزت آدمية الفرد وحفظت حياته[2]. ولم تشهد ما شهدناه من ممارسات التطهير العرقي والصراع الدموي الذي شهدته اوروبا خلال تاريخها الطويل الذي قادها الى تدمير القيم الاخلاقية التي كانت سائدة من قبل في مجتمعاتنا، فانتقلت اخلاقياتهم الى مجتمعنا وما حصل في لبنان اثناء الحرب الاهلية ما هو سوى امتداد لحضارة محاكم التفتيش التي جعلت في شوارع لبنان ميدانا للأخلاقيات الغربية على شكل حواجز تفتيش وقتل على الهوية الدينية، وقد اظهرت الدراسة التي قام بها، دكتور عصام خليفة تسلسل رحلة تاريخية لالف سنه ماضية لأوروبا وكانت على الشكل التالي:

1080 – طرد اليهود من فرنسا

1089 – الطرد من التشيك

1113 – الطرد من كييف (فلاديمير موناخ)

1147 – الطرد من فرنسا

1178 – الطرد من ايطاليا

1188 – الطرد من انكلترا

1198 – الطرد من انكلترا.

1290 – الطرد من انكلترا

1298 – الطرد من سويسرا (اعدام مئة يهوديّ شنقا)

1306 – الطرد من فرنسا (3000 احرقو احياء)

1360 – الطرد من المجر

1– عجاج نويهض – بروتوكولات حكماء صهيون ص ١٩٠ – ١٩١ – م1 ط2.

2– د. برهانا زريق – الصحيفة – ميثاق الرسول – دستور دوله الاسلام

1391 – الطرد من أسبانيا (اعدام 30 الفا وحرق خمسة آلاف أحياء1407)

1394– الطرد من فرنسا.

1407– الطرد من بولندا

1482– الطرد من اسبانيا (قانون يمنع من دخول اليهود البلاد الى الابد)

1492– الطرد من صقلية

1495– الطرد من لتوانيا وكييف

1496– الطرد من البرتغال

1510– الطرد من انكلترا

1516 – قانون في صقلية يسمح لليهود بالعيش في الاحياء اليهودية فقط

1516– الطرد من البرتغال

1567 – الطرد من ايطاليا

1570– الطرد من المانيا (برادنبورغ)

1580– الطرد من نوفغورود روسيا – ايفان الرهيب

1592– الطرد من فرنسا

1616 – الطرد سويسرا

1629 – الطرد من سبانيا والبرتغال (فيليب الرابع)

1634 – الطرد من سويسرا

1655– الطرد من سويسرا

1660 – الطرد من كييف

1701 – الطرد من سويسرا (مرسوم فيليب الخامس)

1806– انذار نابليون– باداراجا

1828 – الطرد من كييف

1933 – الطرد من المانيا والابادة الجماعية[1].

هذا التسلسل التاريخي القصير المتعلق بعلاقة الشعوب الاوروبية باليهود خلال الألف سنة الماضية ونلاحظ به أن اليهود في كل مرة كانوا يطردون من جميع شعوب العالم، كان ملجأهم الدول والشعوب الاسلامية هي التي تحملتهم فلم يطردوا يوماً منها وكان جزاء الشعوب الاسلامية في 14 مايو 1948 ان تم إنشاء دولة إسرائيل في 14 مايو 1948 على الأراضي الفلسطينية بمساعدة الدول التي طردتهم[2].

مقومات الفلسفة الإسلامية الشرقية

قامت فلسفات عصر النهضة الحديثة في الشرق على رفض المدنية الغربية على المستويين الفلسفي والادبي، خاصة بشأن

1– في المدينة – اولى دستور لحقوق الانسان اول – قراءه قانونيه تاريخيه اجتماعية معاصرة

2– د. زكي نجيب محمود – في حياتنا العقلية من ص 16 _ 17 29_ دار الشروق بيروت– ط 3 – ١٩٨٩مجلة العربي – مقالة فؤاد زكريا – الاصالة والمعاصرة عدد 1405

الفلسفة الاحادية التي قامت عليها الرؤية الغربية والتي تمحورت على العالم الارضي وحده، حيث اقيمت الرؤية الحضارية الشرقية على ثنائية الدنيا والآخرة، والارض والسماء والخالق والمخلوق الخ... وقد تنفع في هذه الرؤية مقولة هوسرل حول طبيعة المشكلة الفلسفية بان هدف الفلسفة هو البدء بشيء بسيط للغاية بحيث لا يستحق الذكر والانتهاء الى شيء مهم للغاية بحيث لا يصدق[1].

والذي لا بد من الاشارة اليه انه لا يمكن الحكم على الفرضية الفلسفية بالصدق او الكذب، فليس من الجائز اصدار هذا النوع من الاحكام في النظرية الفلسفية، فلا صدق فيها ولا كذب ..... يمكننا الحديث فقط ببساطة النظرية ووضوحها ويختلف مدى الاقتناع من فرد لآخر باختلاف التركيب الانفعالي لكل فرد ونوع النظرية التي تقدم لها السكينة الذهنية والطمأنينة العقلية. لهذا كان إدراكنا الصحيح للحياة التي نحياها يتطلب استكشاف القيم التي تتضمنها ومبلغ سلامتها وإصالتها أو ضعفها وخللها. وما يحتاج منها الى تعديل او حتى رفض في سبيل قيم تنبع من تراثنا وتتعلق بها الآمال المنبعثة من صدورنا[2].

وهنا لابد من أن نعي جيدا براعة مفكري الغرب في إبراز فضائل حضارتهم وما من شك أن لهذه الحضارة

فضائل ولكن الذي لا شك فيه هو ما تنطوي عليه براعة هؤلاء المفكرين. من أغراض على المستوى السياسي فالحضارة الغربية تجمع من الألوان والأنظمة ما هو متنافر ليصبح المجتمع الإنساني برمته واقعا تحت مهزلة صوت المدفع الذي يتيح للغرب المسلح اليوم ان يطلق صوتا سخيفا في شؤون الروح يسميه صوت الحكمة والتقدم وهو الذي يعني لديهم الانصياع الكامل للماسونية الصهيونية التي يريدون فرضها علينا تحت مسميات العقلانية والتقدم والسلام.

وما من شك أن النهوض الحضاري يستوجب عدم إضاعة أي جهد إنساني علمياً كان أم دينياً فالحضارات والثقافات لا تموت إنما تهضم في ثقافات أخرى لهذا لابد من استعراض الديانات لنبدأ بالديانات الأرضية بعد أن أصبحنا نعيش في ظلها إلى جانب الأديان السماوية الصحيحة والمحرفة خاصة بعد أن أقدم الغرب وفي سياق دعمه لإسرائيل إلى الحديث عن ديانة جديدة يعملون على انتشارها وهي الديانة الإبراهيمية والتي قامو بعدها بتعديل هذه التسمية لاحقاً إلى تعبير آخر هو الاتفاقية

1- عن اليوتيوب
2- ادموند هوسرل- تاملات ديكارتية – ص 29 الى 35 – دار بيروت للطباعة والنشر ط1 – -1958 د. قسطنطيني زريق- في معركة الحضارة ص 18 دار العلم للملاين 1973

الإبراهيمية الحديثة إذ أن الإبراهيمية مهما عدلوا من تسمياتها فمصدرها ليس نهج السماء إنما هي من صنع الذين أقاموا للصهيونية دولة كتسويق لمشروع دولتهم

نبذة وجيزة عن الديانات الأرضية

من الديانات الأرضية البارزة المعروفة الديانة الهندوسية فهي ترتبط بالتعاليم الأرضية التي تلبي حاجات المجتمع الذي وضعها وتتميز بكون أصحابها هم الذين وصلوا إلى الله لا العكس. وكانوا كاليونان لهم كثير من الآلهة ثم تطورت الهندوسية إلى البوذية التي استقت تعاليمها من الهندوسية ولكنها اختلفت عنها برفض تعدد الآلهة كما يؤمنون بتناسخ الأرواح[1].

اما الديانة المجوسية فهي موجودة في بلاد فارس منذ 3500 سنة وهم وثنيون يعبدون الشمس والنار، وقد خرجت عن الديانة المجوسية الديانة الزرادشتية بعد ظهور زرادشت، والديانة المجوسية هي فرع من فروع الآرية في اوساط اسيا التي كانت تعبد اثار الطبيعة وقد جعلها الفرس خليطا من الحضارات البابلية، والهندية، والمصرية، الى جانب الديانة اليهودية اذ كانوا يأخذون من التعاليم ما تتقبله اهوائهم وعاداتهم، وقد ادعى زرادشت النبوة معتبرا ان للكون الهاً واحداً، وقد لعبت عبادة النجوم والشمس حيزا كبيرا لدى الفرس ولم تكن عبادة الشمس من ابداع الفرس اذ كانوا اول من عبد الشمس تحت قواعد دينية منظمة هم السومريين والكلدانيين، والفراعنة، فهم الذين ابتدعوا اله الشمس «اوتو» وكانوا يوقدون في معابدهم نارا لا تنطفئ تكريما لإلاههم، وعنهم انتشرت عبادة الشمس[2].

البهائية

تعود أصول البهائية إلى محمد الشيرازي الذي كان إنسانا عاديا، بالغ الزهد، فاستغله الملا المشرئي الذي كان متعاونا مع أحد عملاء الروس فقام بإغرائه إلى أن أعلن أنه هو المهدي المنتظر فسجنته الدولة العثمانية، وعندما كان في السجن انقسم أتباعه عام 1266 هـ، قسم منهم اتبع يحيى المازوندراني ومنهم من اتبع أخوه الملقب ببهاء الله الذي ادعى بعدها بأنه مظهر الله الحقيقي، وقد توفي عام 1309 هـ[3].

وكان ذلك من اجل ضرب الديانة الاسلامية، وقد وضعها مع الباب العالي الذي كان في الاصل ماجوسيا وبعد اعدام الدولة العثمانية له، انتشرت البهائية على

1- ويل ديورانت قصة الحضارة ص 126 _ 194 – م 2 ج 2

2- فاروق الدامرجي تاريخ الاديان –الالوهية وتاريخ الاديان ص –343 الاهلية للنشر والتوزيع بيروت 2003

3- ويل ديورانت كتاب قصة الحضارة ص 127 – ج2 – فاروق الدامرجي – تاريخ الاديان ص 3-4-3

يد اشقائه حسين ويحيى اللذان نفتهم الدولة العثمانية، وكان منفي حسين هو مدينة عكا وفي عام 1868 ميلادية بدأ حسين بنصرة الديانة البهائية ووضع كتابه «الكتاب الاقدس» مدعيا بانه المهدي المنتظر، وهو الرب الخالق، وقد وضع في هذا الكتاب تعاليم الديانة البهائية، فكانت البهائية هي الفرصة المناسبة لضرب الديانة الاسلامية، وكان ذلك بمساعدة اليهود انتقاما من الدولة العثمانية التي رفضت اعطاء فلسطين لليهود، هكذا اصبح حسين هو الرب الخالق، وقد ساعده اليهود على ذلك. فاسكنوه القصور ودعموه ليتسلم مقاليد الالوهية عام 1898 [1]. جاء بعده ابنه العباس عام 1898 ليتسلم مقاليد الالوهية وليؤيده اليهود تأييدا مطلقا، اذ جاء في كتابه بان اليهود ستأتي الى فلسطين تدريجيا حتى تصبح كلها لليهود وعندما اقيمت دولة اسرائيل عام 1948 اهتموا كثيرا بالبهائية اخر الديانات الارضية، قبل الديانة الابراهيمية المزعومة، علما ان سيدنا ابراهيم وان كان نبيا الا انه لم يحاول وضع ديانة، اذ كان قد توصل الى الله بقلبه المؤمن الموحد فقط، وهذا ما جاء في القرآن الكريم (بقول الله تعالى «ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما ولم يكن من المشركين»(صورة ال عمران اية 27) ومن نسل سيدنا ابراهيم تفرع الانبياء حملة الرسالات السماوية موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام.

ثنائية العقل والقلب وأثرها في الحضارة الإسلامية

في مقابل تفرد العقل الذي قامت عليه الفلسفة الغربية، كان هناك ثنائية العقل والقلب التي قامت على أساسها الفلسفة الإسلامية التي تحركت في عالمين، الأول عالم المنطق العقلي والتجريبي، والثاني لغته الإيمان القلبي وهو موقف تفكيري لم يحدث لفلاسفة أوروبا لأن تفكيرهم يعيش في العالم الأرضي وحده، ولغته هو العقل المنطقي بمفرده، ولقد كان للقلب وانطلاقا من القرآن موقع أساسي في الحياة الفكرية

العربية قديما وحديثا فهو الركيزة الأساسية التي تقوم عليها المدارك الإنسانية بمختلف صفاتها اذ كان في ثنائية العقل و القلب تميز الفلسفة الإسلامية عن الحضارة الغربية وفلسفتها، فنزعة العقل التي كانت أحد أهم نتاجات المدرسة الوضعية جعلت المعرفة الإنسانية تنحصر في التجربة العقلية الملموسة وحدها وهي الحصيلة التي قامت عليها المدرسة الوضعية والتي اعتبرت المادة بديلا عن الله والتي تفرعت

1- فاروق الدارمجي تاريخ الأديان صفحة 344 الإلهية للنشر والتوزيع بيروت 3 – د. اسعد سحمراني من اليهودية الى الصهيونية الفكر الديني اليهود في خدمة المشروع السياسي الصهيوني صفحة 27-26 دار النفائس.

منها موجات الإلحاد وإنكار وجود الله[1]. أما في تراث الشرق العربي فكان أبرز مقومات الفكر هو الدين قديما وحديثا، ويبرز ذلك من اقتران الدين بالأدب والفلسفة في التراث الإسلامي فكلاهما يضيء من مشكاه واحدة، منبعها ذلك القبس العلوي الذي نبع من الأديان السماوية، وطفرة من طفرات البشرية المتحررة من حكم الغرائز وتغليب المصالح الاقتصادية والمكيافيلية التي لا تقيم للوازع الأخلاقي أي اعتبار كما هو الحال في السلوك الاستعماري للحضارة الغربية وهنا يبرز مفهوم الكمال الإنساني في الفلسفة العربية الإسلامية قديما وحديثا اذ ارتبط معنى الرقي الأخلاقي في الفلسفة العربية بخاصية مميزة فهي لم تسّلم أبدا بأن معنى الرقي الإنساني هو في تقدم أسباب معاشه المادية إنما الرقي الإنساني هي في التطلع إلى متع معنوية واغذية روحية وقيم أخلاقيه، لا علاقة لها بضرورات حياته الجثمانية مع كل ما يتضمنه هذا المعنى من تجريد الإنسان للبعد الروحي المرتبط دائما بالنموذج الأرقى الذي هو الله وبالقيم النابعة من السماء، والتي بها يتميز الإنسان عن الحيوان[2]. هكذا رسمت الصورة المثالية للإنسان الكامل على شكل خاص فهو ذلك الذي يستطيع أن يوازن حياته بين مطالب الدنيا والآخرة والقائمة على التوازن بين جاذبية الأرض والسماء، تصديقا لقوله تعالى في قرآنه الكريم «إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم» (سورة محمد آية 12) كما يقول تعالى «إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون» (سورة الأنفال اية 55)

لهذا كانت أول مآخذ الفلسفة العربية وأدبها في العصر الحديث على المدنية الغربية الحديثة وعلمها العقلي المحض هو العمل على الخروج من جاذبية الأرض باختراعاتها المختلفة للوصول إلى المريخ والقمر بالاعتراض على ذلك الحلم بحلم آخر، أعظم وأجدى للإنسانية جمعاء أي باختراع يخرجنا من جاذبية الأرض وعالم تركيبنا الحيواني لنلحق بالإنسانية العليا التي جاءت بها الديانة الإسلامية خاصة بعد أن اتضح من الحضارة الغربية الحديثة من الممارسات التي ترمي إلى إخضاع الحياة كلها لمقاصدها المادية على النحو الذي جعل الخط البارز، والمظهر الغالب للحضارة الغربية هو الاقتصاد بالإضافة إلى مطالب الأرض والدم، والجنس، والبيئة، وقد رأوا أن هذه الحضارة ما كانت

1- توفيق الحكيم _التعادلية مع الإسلام والتعادلية صفحة 157-156 مكتبة الآداب الجاميز _ القاهرة
2- دكتورة سعاد الحكيم_ الحكمة في حدود الكلمة صفحة 191 بحث في مفردات الفيلسوف ابن عربي رسالة دكتوراه

لتنتهي إلى هذه النهاية غير الإنسانية ما دامت تؤدي على هذه الصورة المخيفة لسيطرة الآلة على الحياة الإنسانية وسيادتها وإلى طغيان الحساب والأرقام والمصالح، هكذا أصبحت الحضارة الغربية بمذاهبها المختلفة تطرح القوى الروحية ولا تستبقي غير القوى العقلية تستمد منها وحدها كل عناصر نشاطها فالحيوان الذي لا يعقل هو كذلك لأنه لا يدرك معنى النموذج الأرقى أي الله, وهذا ما جاء في القرآن تخصيصا فالإنسان هو الكائن الوحيد القادر على إدراك الله ويتوسل إلى هذا الإدراك بوسيلتين المنطق المنبعث من العقل والإيمان المنبعث من القلب الأول عكازة الدليل البين والآخر دليله الشعور الخفي، والحيوان حتى في أعلى مراتبه لا يدرك فكرة الأرقى أي الله لذلك فهو لا يتقيه،أنه يدرك الأقوى فقط فالعالم بالنسبة إليه مخلوقات ضعيفة يتغلب عليها وأما مماثلة له في القوى يتحاشى مواجهتها، والقوى عنده بدنية بحته كما هي في فلسفة نيتشه التي توجب قتل الضعفاء لا مساعدتهم والتي عنها خرجت النازية والصهيونية في عصرنا الحديث[1].

اعتبرت الفلسفة الإسلامية الحديثة أن الحضارة الغربية تتقدم في وسائل قدرتها أسرع مما تتقدم في وسائل حكمتها وأن المخالب في الإنسان الأول قد تطورت من أسلحة حجرية إلى سيف إلى قنبلة ذرية، ولكن وسائل تحكمه بغرائزه لم تتطور إلى حد يمكنها في كل الأحيان من كبح جماح القدرة المطلقة، لهذا كانت صورة الإنسان في الحضارة الغربية صورة لمخلوق عجيب له ذكاء العالم، وضمير القرصان وغريزة الحيوان[2].

المؤثرات الفكرية في تشكيل الأصوليات المعاصرة

شهد النصف الأول من القرن العشرين ثورات في شؤون الفن الأدبي والسياسي وكان يضطرب بعوامل التوجه نحو مكافحة الاحتلال الأجنبي والتصدي لموجات التغيير الديمغرافي التي تجتاحه في محاولة للنهوض بالأمة في طريق مستقبل منشود يحاول كل فريق رسم ملامحه وكان الحوار الذي دارت حوله الخلافات يعود إلى مفهومين وحضارتين لهذا كان من أبرز القضايا التي تصدى لها الفكر العربي الحديث قضية الإلحاد وإنكار وجود الله اذ كانت قضية الألوهية و قد شغلت فلاسفة أوروبا كما شغلتها في

1–الإمام الأكبر محمود شلتوت من توجيهات الإسلام صفحة 12 دار الشروق بيروت ط 7 – القرطبي الجامع لإحكام القرطبي ج1 صفحة 149 صفحة 149 طبعه 3 دار الكتب المصرية – دكتور عبد الرحمن بدوي نيتشه صفحة 217 مكتبة النهضة المصرية ط٢–

2 – توفيق الحكيم – التعادلية ومع الاسلام والتعادلية ص 51 – فن الأدب صفحة 262 دار الكتاب اللبناني بيروت

العصور السابقة إذ أن هذه القضية لم تغب عن أي شعب من شعوب الأرض فبعد كل ما قام به الفلاسفة والمفكرون من تأملات وأبحاث يلحظ شعور هؤلاء بهذا الواحد الخفي الذي يحرك الكون ويتحكم بمساره وقد حاول كل منهم أن يعبر عنه بطريقته فكان في فلسفة نيتشه «القوة» التي قضت على الاحساس الروحي النابع من القلب وفي فلسفة بروغسون «الطاقة الحية» وفي فلسفة شوبونهور «الإرادة» وفي فلسفة هيجل «المطلق» وفي فلسفة ماركس «المادة» وفي الأديان السماوية اسمه الله. لقد اتفقت جميع الأراء عند الفلاسفة عامة أن هناك شيئا واحد يحرك هذا الكون وكل الخلاف هو في تحديد الاسم[1].

ويرى الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي أن المدرسة الوضعية لاوغيست كونت هي التي دفعت بالغرب إلى ما وصلت إليه ثورته الصناعية وحاجتهم إلى الأسواق الاستهلاكية لكي يعين نفسه مسؤولا عن استعمار العالم بأسره سواء بحجة التعرف إليه أو بحجة تمدينه وذلك لأجل استثمار ثرواته وموارده وخيراته،وكان لانتصارات الحضارة الغربية وانتشارها أن عمّمت الأصوليات الدينية في شرقنا العربي وفي بلدان العالم الثالث بكل أشكالها وقد ولدت هذه الأصوليات من زعم الغرب منذ بدايات النهضة في عالمنا العربي فرض نموذجه الانمائي والثقافي والأخلاقي، فالأصولية الغربية هي العلة الأولى التي نتجت عنها كل الأصوليات المعاصرة اليهودية والمسيحية والإسلامية وهي الخطر الأكبر في عصرنا الراهن حيث أنه لا يمكن حل مشكلة انطلاقا من التمسك بمعتقدات جامدة فالحوار هو نقيض الأصولية فليس هناك أي حوار مع الجمود الفكري الذي لا يقبل الآخر و الأصولية الدينية مسألة تضرب جزورها في الاقتصاد والسياسة لكنها في الوقت نفسه قرحة روحية تتهدد الحضارة المعاصرة بكاملها[2].

وكانت الأصوليات الغربية تستخدم منذ خمسة قرون كمبرر ايديولوجي لكل تجاوزات الاستعمار، هكذا غدا واقعنا يعيش واحدا من اخطر الصراعات التي تخوضها امتنا في تاريخها القديم والحديث وذلك لأن الحركة الصهيونية الاصولية المعاصرة تضم يهود العالم إلى جانب صهيونية مسيحية تؤمن بالعهد القديم وما ورد فيه من مزاعم ونبوءات ملفقة بأحقية اليهود بدولة على ارض فلسطين وقد التقى هذا الاتجاه الديني مع الاطماع

1- دكتور مصطفى محمود الشيطان يحكم صفحة 138 دار العودة بيروت 1986

2 - روجيه غارودي الاصوليات المعاصرة اسبابها وظاهرها صفحة 1-12 ترجمة خليل احمد خليل دار باريس عام 2000 المرجع نفسه صفحة 20-38

الاستعمارية التي تريد الإنقضاض على أرض امتنا وامتصاص ثرواتها، والصهيونية ليست مصطلحا دينيا إنما هي مصطلح سياسي يحمل فكرة يهودية تقوم على حق مزعوم بالعودة إلى أرض فلسطين والتي من أهدافها إقامة هيكل سليمان في القدس لهذا كان لابد لهم من قيام منظمة سياسية تحقق هذا الغرض[1]. وكان لحضور الاستعمار الغربي في صميم مجتمعنا وعالمنا السبب الأول في انتشار وتغذية التيارات الأصولية لتتناسب مع طروحات الصهيونية في فلسطين حتى أنه شجع قيام ديكاتوريات عسكرية هكذا جعل الغرب من الحركة الصهيونية جهازا لدولة اسرائيل في العالم كله، وقد أعلن ذلك في الكنيست الإسرائيلي في 24- 11-195 حول المنظمات الصهيونية ينص في احد بنوده على أن دولة إسرائيل تعتمد على مساهمة اليهود في كل بلاد العالم ومنظماتهم اليهودية لبناء دولة إسرائيل وفي 1990-7-9 صرح يوسف شيتروك كبير حاخامات فرنسا للإذاعة الإسرائيلية في القدس أن كل يهودي فرنسي ممثل لدولة إسرائيل وقد اعتبر روجيه غارودى أن هذا الموقف السياسي هو من خصائص الأصولية وقد أضاف الكنيست الإسرائيلي في تموز عام 1954 المادة- 59 – التي تحمل الطابع الرسمي لهذا التصور، وذلك بالاتفاق مع المنظمة الصهيونية العالمية وبالتفاهم بين الحكومة الإسرائيلية والجهاز التنفيذي للمنظمة هكذا منحت الحكومة الإسرائيلية دعمها القانوني للحركة الصهيونية العالمية وهكذا أصبحت الأصولية الصهيونية جهازا رسميا لدولة إسرائيل، وله تمثيل بارز في كل سفاراتها ويعمل هذا الجهاز بفعالية في الولايات المتحدة أولا وفي دول أوروبا للحصول على الدعم المطلوب والغير مشروط مع الصمت والقبول لكل مشاريع إسرائيل في ضم الأراضي التي سيطرت أو يمكن أن تسيطر عليها وصولا إلى غزو لبنان وحتى القمع الوحشي للفلسطينيين وتجويعهم[2].

قامت النزعة المثالية للصهيونية على أنهم شعب الله المختار وهذا ما بلوره أدب كل من هيرتزل وعجنون وقد ذهب الأمر بتيودور هيرتزل إلى الإدعاء الكاذب بأن الأرض المغتصبة فلسطين كانت صحراء قاحلة لا زرع فيها ولا بشر ولا حتى حجر إلى أن زرعها وعمرها اليهود كما جعل الأدب الصهيوني من الإسرائيليّ «السوبرمان» أو الإنسان الأعلى الذي نادى به نيتشه في فلسفته بديلا عن الله ومن حق الإسرائيلي أن يحقق مكانته هذه

1- روجيه غارودي الأصوليات المعاصرة أسبابها ومظاهرها من صفحة 70 إلى صفحة 78 مطبعة 2000 باريس 1 1999 ط 1

2- د. نبيل راغب المذاهب الأدبية صفحة 79

عن طريق الاعتداء على الأجناس الأخرى وذلك انسجاما مع معتقداته الدينية التي لخصها التلمود ونادى بها بروتوكولات حكماء صهيون[1].

وكان هيرتزل في رواية «الأرض الجديدة القديمة» أبرز ممثلي الأدب الصهيوني وقد حولت هذه الرواية هيرتزل الأديب والفنان إلى هيرتزل السياسي[2]. من هنا نرى أن الواقع والتاريخ يقولان لنا اتبعوا الشمس حيث ا تسير وأفحصوا كل شبر من أرض يقع عليها شعاع تجدوا راية غربية وفتوحا حربية ومطامع استعمارية هذا هو الغرب الذي لم يتورع عن إقامة إسرائيل وهو لا يكتفي اليوم بمطامعه الاستعمارية السابقة إنها تشمل أيضا الاخضاع الروحي بتعميم نظمه العنصرية وأفكاره التدميرية من أجل نصرة دولته التي أقامها بإختلاق الأديان كما خلقوا دولة إسرائيل وهاهي الديانة الإبراهيمية التي تحولت إلى اتفاقية تغزو مجتمعاتنا كجزء من نهجه السابق والتي تهدف لا لنهب ثرواته المادية فحسب ان انما ليذوب المقهور في القاهر، وما يحصل في عالمنا العربي خطير جدا، فمنذ أن أصبحت الدعاية علما له أصول وقواعد مدروسة أخذت فنون التأثير الحديثة تتبع أساليب متشابهة ترمي في نهاية الأمر إلى تشكيل العقول بطريقة تصبح أكثر قابلية لتصديق ما يلقى على مسامعها، وأقل قدرة على استكشاف ما يقال لها، ومن أشهر هذه الأساليب وأكثرها شيوعا تكرار التعبير الواحد عددا هائلا من المرات مع ربطه بالشحنه الانفعالية المطلوبة من استحسان او استهجان، بحيث تتقبله العقول آخر الأمر مقرونا بالانفعال المطلوب دون أي فحص أو اختبار منطقي، وهذا ما نجحت به للأسف وسائل الإعلام الغربية الحديثة، وكذلك العربية في كثير منها،لهذا يجب أن ندقق في لغة تخاطبنا حتى لا نستعمل كلمات ومصطلحات فقدت قدرتها على التعبير عن حقيقة واقعنا فضلا عن التوصيل، ومن أبرز هذه المصطلحات التي يتداولها الإعلام الحديث الفاظ الديمقراطية والحرية والإرهاب والسلام إلى آخره. وفي مضامين هذه التعابير معاني معينة روجت لها وسائل الإعلام المختلفة. هكذا صنف المناضل الذي يحارب من أجل تحرير وطنه من المحتل الصهيوني إرهابيا. وكلمة السلام تعني في الإعلام الغربي والتابع له سلامة المحتل الإسرائيلي حصرا، وقد أدى التشرذم في عالمنا العربي إلى ترك بصمات قوية طاغية على عالم

1- دكتور أسعد سحمراني من اليهودية إلى الصهيونية
2- غسان كنفاني في الأدب الصهيوني صفحة 124_ 123 مركز الدراسات الفلسطينية 1982 _عباس محمود العقاد ما يقال في الإسلام صفحة 75 ط 2 1966 دار الكتاب اللبناني – بولس مسعد همجية التعاليم الصهيونية ص -27-23 بيروت 1969

الفكر والسياسة الذي أصبح في ظل هذا الواقع يعاني من تفرد صهيوني صارم من التحريفات والخرافات التي لم ينجو منها حتى الله بجلال قدرته وقدره، ويتمنى في ظلها البعض أن يقرأوا أو يسمعوا ما يوافق أهواءهم الأمر الذي يبدو معه الرأي الآخر شذوذا مستغربا وصوتا ناشزا في معزوفة مقررة.

إن أول المآخذ على الفلسفة الغربية الحديثة وقوعها بالتناقض، فالمفروض من التقدم العلمي والفلسفي الهائل أن يؤدي إلى خير البشرية المعاصرة والواقع غير ذلك فهي تبدو كطائر جبار يحلق بجناح مادي واحد بعد أن انكسر جناحه الروحي الا وهو الدين، فمن مميزات الدين أنه الصوت الداخلي الذي يحكم سلوك الأفراد والجماعات، إذ أن القانون الوضعي يحكم سلوك البشر الخارجي وليس له سلطة أو مقدرة ألنفاذ إلى داخل النفس البشرية، ولذلك تكمن كثير من الخطايا داخل النفس البشرية تنمو وتتراكم كالجراثيم والفيروسات الغير مرئية دون ان تصل إليها سطلة القانون فهو المضاد الحيوي، وهو الاشعة الروحية التي تستطيع ألنفاذ إلى داخل النفس الإنسانية وقتل هذه الفيروسات في مكامنها، فالقيم الروحية ليست ترفا عقليا، إنما هي ضرورة بشرية، ذلك أن تغليب منطق القيم الاقتصادية والتجرد من العدالة الإنسانية يستحيل معها الإنسان إلى حيوان يحكم بشريعة الغاب، وهو المنطق السائد اليوم، فالذي يفرق بين الإنسان والحيوان هو الكم المضاف إليه من قيم، وهذا ما نفتقده اليوم في الحضارة الغربية التي حولت المجتمع البشري إلى شريعة الغاب خاصة في لبنان وفلسطين .وكان القرآن قد قدم للفلسفة الإسلامية النهج الواضح الذي يستطيع معه الإنسان إذا فهمه جيدا أن يعتنق نهجا ليزاول به حياته، فالإنسان دونا عن الحيوان مزود بعقل لا بد أن يعمل وإذا لم يعمل في اتجاه صالح فلابد أن يعمل باتجاه خاطئ وأحياناً إجرامي وهو الذي حصل من أوروبا بتشريدها للفلسطينيين من أجل إنشاء دولة إسرائيل، وأول فضائل الدين هو التمسك بتراث أمتنا الحضاري والأخلاقي والذي اعتمد سابقاً على القيم الدينية دون تميز، فجميعها من مصدر واحد وهو الله، هذه القيم الأخلاقية والروحية هي التي تميزت بها أمتنا قديماً وحديثاً في بعض الأحيان ذلك أن التوازن بين المنطق العقلي والإحساس الروحي النابع من القلب تجعل الإنسان يتقي الله فيعيش لدنياه كأنه يعيش ابدا ويعيش لآخرته كأنه يموت غدا.

ظاهرة الانهزام الثقافي وطريقة معالجتها في القرآن

لا ريب أن النهوض الحضاري في

مجتمعنا يستوجب عدم اضاعة أي جهد إنساني علمياً كان أم دينياً

فالحضارات، والثقافات لا تموت إنما تهضم في ثقافات أخرى سواء تمثلت بمقومات عقلية أم روحية، وفي إضاعتها تخلّف وجهل وبدائية في أبشع صورها، والذي قامت عليه الفلسفة الإسلامية النابعة من القرآن تتسم بثنائية العقل والقلب والدنيا والآخرة والخالق والمخلوق الخ... وقد جاء في الميراث الفلسفي الإسلامي أن الإنسان الذي يتصف بالحيوانية من الجنس البشري هو مخلوق جمع جميع حقائق العالم الأرضي وحدها فالإنسان والحيوان يتغذيان بالغذاء المادي عينه من طعام وشراب أما الإنسان الكامل في الفلسفة الإسلامية فهو الذي يرزق إلى جانب الغذاء المادي بغذاء نوراني لا يناله الإنسان المتجرد[1].

من الإيمان بالذات الإلهية وهو ما قامت على أسسه الفلسفة الإسلامية التي تعيش في عالمي الدنيا والآخرة وليس في العالم الأرضي وحده. كان من اهم اقطاب العالم الارضي والقيم العقلية المفكر ارنست رنان الذي يزعم ان العقلية الآرية لابد ان تكون متفوقة ما دام أصحاب هذه العقلية هم المسيطرون على شعوب الأرض. ثم يشتد رنان في التهجم على العقل العربي قائلا: (يبدو ان التفكير الفلسفي للبحث عن الحقيقة كان وقفا على الجنس الأوروبي أي الآري الذي كان يبحث منذ أقدم العصور الى الآن في الله والانسان والعالم ويفسره تفسيرا عقليا، فترك في كل مراحل تاريخه اثارا فلسفية خاضعة لنواميس تطور منطقي؛ فالعرب تنقصهم الدهشة التي تدعو الى التفكير والتساؤل لان اعتقادهم بقدرة الله يجعلهم لا يُدهشون لشيء[2]. والمدهش في ادبنا العربي الحديث قيام فلسفته على أساس الايمان بوجود الله و اليوم الاخر الذي كان أساس البناء الفلسفي والادبي لادبنا المعاصر؛ اذ كانت العقيدة بالذات الالهية هي المحور الفلسفي لادبنا الذي قام على ثنائية الخالق و المخلوق و العقل والقلب لا على العقل و حده؛ فبثنائية العقل و القلب استطاع الادب العربي الحديث معالجة المشاكل القومية والقضايا النهضوية التي انطبعت بطوابع إنسانية عامة مع التركيز على تصوير معالم وخصوصيات الروح العربية بشكل واضح ؛ هكذا جعل الادب العربي من قضية انكار الله واستبعاد الغيبيات الدينية الدرع الأول في مواجهته و تصديه لمقومات

1- دكتور ذكي نجيب محمود أفكار ومواقف صفحة 48-ط1987-3 دار الشروق- دكتورة سعاد الحكيم الموسوعة الفلسفية_ معهد الانماء العربي ط-1 م-1 1986 مقالة تحت عنوان اصطلاح ومفاهيم صفحة 137-134 - دكتور احمد صبحي الفلسفة الاخلاقية في الفكر الاسلامي العقليون والذوقيون او النظر والعمل ص31 دار النهضة العربية ط 1992-3

2- انيس المقدسي _ الفنون الأدبية واعلامها _ ص 576

الغزو الفكري ببعديه الديني و الدنيوي و باعتباره ان الله هو النموذج الأرقى الذي ينشّط الرقي الأخلاقي في اطار مناقشته لنظريات التطور والرقي عند داروين و نيتشة[1].

لهذا كان من العبث القبول بترك مفاهيمنا إلى مقاييس التيارات الغربية الوافدة لتسيطر على عقولنا ونفوسنا، فالقيم الغربية نابعة من ثقافة مغايرة لثقافتنا الثنائية، تحكمت في صياغتها ظروف اجتماعية مختلفة عن بيئتنا ومن الخطأ ربط قيمنا الفكرية والاخلاقية بها ولدينا القرآن الكريم، ولكن المؤسف ان التيارات الفكرية الآحادية أي الغربية هي التي تسيطر على ثقافتنا الحالية، وقد عملت تلك التيارات على بتر مثقفينا عن ثقافتهم الثنائية الأصلية والتأثير في وجدانهم بإقناعهم ان تلك التيارات لا بد ان تكون هي الافضل طالما ان الغرب قد حقق تقدمه على اساسها. وقد رأى البعض أن أهم وسائل النهوض الحضاري هي التي تقوم على دعامتي العقل والقلب التي كانت من ثنائيات الفكر الإسلامي التراثي والتي يستطيع معها الإنسان أن يتوازن ما بين جاذبية الأرض وجاذبية السماء والدنيا والآخرة والخالق والمخلوق، وهي الفلسفة التي قامت عليها قديما فلسفة عبد الله الجيلاني وابن عربي وما قامت عليها الفلسفة الإسلامية من ثنائيات العقل والقلب والدنيا والآخرة والخالق والمخلوق إلى آخره، دون الاكتفاء بحصر الفلسفة الحديثة بمقومات المدرسة الوضعية التي انتجت الفلسفة الغربية التي لا تعترف سوى بالمعرفة الحسية والتجريبية وحدها فالعقل البشري محدود بحدود القدرة البشرية، اما المعرفة الحسية والدينية فهي متصلة بالذات الالهية الغير محدودة بحدود القدرة البشرية، والعقل سلم يصعد عليه بالمنطق البشري اما الايمان القلبي فهو شعاع يضيء بغير دليل ارضي، والمخلوق البشري كباقي المخلوقات لا بد ان يحيا في العالم، ولكنه يستطيع ان يرتد الى داخله لكي يحيا في عالمه الروحي الخاص، فبثنائية العقل والقلب يستطيع ان يحيا الانسان بكامل مكوناته، وهناك كثير من الآيات القرآنية التي تتحدث عن ذلك بقوله مثلا «افلم يسيرو في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها فإنها لا تعمي الابصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور» (في سورة الحج 164)

هكذا يبرز القرآن لنا القلب كأداة إدراك تساعد الحواس الإنسانية المختلفة. وكذلك في قوله تعالى «وطبع على قلوبهم فهم لا يعلمون» (سورة الأعراف آية 100) وكذلك

1- توفيق الحكيم _ روايات عودة الروح وعصفور من الشرق_ توفيق الحكيم _ تحت شمس الفكر ص 100_ توفيق الحكيم _ التعددية مع الإسلام والتعادلية ص 215

ربط الله تعالى بين القلب وحاسة السمع بقوله تعالى «ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون» (سورة الأعراف آية 100) كذلك بقوله «وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون» (سورة التوبة آية87) وأيضا نراه يقول «إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض» (سورة الأنفال آية 49) وهناك الكثير من الآيات التي تتحدث عن ارتباط القلب بكامل الحواس الإنسانية، فهو أحد الملامح الرئيسية للفلسفة الإسلامية، لذلك كان التركيز في القرآن على القلب الإنساني، مهما كان ذلك الإنسان عادياً أم نبياً من أنبيائه، فالمؤمن هو من أسلم قلبه لله تعالى، وفيما جاء في القرآن عن النبي نوح الذي عاش بفترة زمنية تسبق ديانة الإسلام التي جاء بها سيدنا محمد بقوله تعالى «فإن توليتم فما أسألكم من أجر ان اجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين» (سورة يونس آية 72) كذلك في قوله بالإشارة للقلب «وشفاء لما في الصدور» (سورة يونس آية 56) وكذلك أيضاً كان للقلب الشأن ذاته مع سيدنا موسى بقوله تعالى «قال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين»(سورة يونس آية84)كما جاء في قوله تعالى« وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فاتبعهم فرعون بغيًا وعدوًا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أن لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين»(سورة يونس آية 90) وكذلك عن سيدنا موسى مع فرعون يقوله تعالى عن السحرة «قال فرعون آمنتم قبل أن آذن لكم لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين قالوا إنا إلى ربنا لمنقلبون»(من سورة الأعراف آية 132) « وما تنقم إنا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين»(سورة الأعراف آية 126)

كذلك الأمر كان أيضا مع النبي سليمان قال«لا تعلو علي واتوني مسلمين»(سورة النمل آية 31) وأيضا كان للقلب الشأن ذاته مع سيدنا عيسى بقوله تعالى« فلما أحس منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله امنا بالله واشهد بأننا مسلمون»(سورة آل عمران آية 52) وهكذا كان الأمر أيضا مع سيدنا إبراهيم الذي سبق وجوده مجيء سيدنا محمد بزمن طويل إذ يقول الله تعالى عن ملة إبراهيم«إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين»(سورة البقرة آية 131) ومما جاء أيضا «ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون»(سورة البقرة آية 132) وقوله تعالى عن النبي يعقوب« إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك

وإله آبائك إبراهيم وإسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون»(سورة البقرة آية 133) كما يقول الله تعالى عن سيدنا إبراهيم« ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا أنت التواب الرحيم»(سورة البقرة آية 128) وفي قوله تعالى أيضا «قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل ويعقوب والأسباط ألا نفرق بين أحدهم ونحن له مسلمون»(سورة البقرة آية 136) وقوله أخيرا:

«إن الدين عند الله الإسلام و ما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم و من يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب « << سورة آل عمران، الآية 19 >> صدق الله العظيم، وليس بعد قول الله جل جلاله قول.